

(١)

### قضاء حوائج الناس والمجتمع أولى من حج النافلة وتكرار العمرة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : { وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا } ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فلاشك أن الحج أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا يكتمل إسلام المرء المستطيع بدنياً ومالياً إلا بأدائه ، يقول الحق سبحانه : { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } ، وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : ( بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالْحَجِّ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ) ، فمن كانت نيته قائمة على الحج ولم يستطع ، بسبب عجز ابتلي به ، أو مرض أصابه ، أو فقر ، أو قلة مال بلغه الله (عز وجل) ثواب الحج بإخلاصه في نيته وصدقه مع الله تعالى .

ولقد أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن فريضة الحج واجبة في العمر مرة واحدة ، فمن زاد على ذلك فهو تطوع ، قال (صلى الله عليه وسلم) : ( أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ ، فَحُجُّوا ) ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ( لَوْ قُلْتُ : نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ ) ؛ وذلك تيسيراً منه (صلى الله عليه وسلم) على الناس ، ورفعاً للمشقة والعتق عنهم ، قال تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَ وَلِيُخَفِّفَ عَلَيْكُمُ الْعُسْرَ } ، وينبغي على

(٢)

المستطيع أن يعجل بحج الفريضة ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ، فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرُضُ الْمَرِيضُ، وَتَضِلُّ الرَّاحِلَةُ وَتَعْرِضُ الْحَاجَةُ) .

ومن المعلوم أن قلوب المسلمين تهفو إلى زيارة بيت الله الحرام حجاً أو عمرةً مصداقاً لقول الله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم (عليه السلام): { فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ } ، ورغبة منهم في تحصيل الأجر والثواب يسعى كثير منهم لتكرار الحج والعمرة مرددين قول النبي (صلى الله عليه وسلم): ( تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ حَبَثَ الْحَدِيدِ، وَالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةِ )، غير أن هؤلاء على صدق نيّتهم ، ورغبتهم الصادقة غاب عنهم ضرورة ترتيب الأولويات ، ولم يفقهوا أن قول النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا مرتبط برعاية مقتضى حال الأمة والمجتمع اجتماعياً واقتصادياً ، وسياسياً .

فإذا كان المجتمع في سعة من العيش وكان اقتصاد الوطن قوياً ومتيناً ليس في حاجة إلى من يدعمه ، وليس في أبناء الوطن جائع لا يجد ما يسد جوعته ، أو عار لا يجد ما يستر عورته ، أو مريض لا يجد ما يتداوى به ، فليحج الناس ما شاءوا ، أما إن كانت الأمة أو الدولة في أوضاع اقتصادية تقتضي التعاون والتكاتف للوفاء بحاجات أبنائها واحتياجاتهم الأساسية ، كإطعام الجائع ، وكساء العاري ، ومداواة المريض ، وسد ديون الغارمين والغارمات ، والإسهام في توفير الخدمات الأساسية فإن ذلك يكون أكبر أجراً وأعلى ثواباً من حج النافلة وتكرار العمرة .

وقد أخذ الإمام أبو حامد الغزالي (رحمه الله) على الذين يحرصون على إنفاق المال في الحج بعد الحج ، والعمرة بعد العمرة ، ولا يوفون بحق الفقراء وأصحاب الحاجات ، فربما تركوا جيرانهم جياً لا طعام لهم وذهبوا بنفقاتهم الواسعة لإشباع

(٣)

رغباتهم النفسية في كثرة الحج والعمرة غير مدركين لمقاصد الإسلام الكبرى ، نتيجة عدم إدراكهم لفقهِ الأولويات وترتيبها .

إن الفهم الصحيح لدين الله (عز وجل) بما يتناسب مع واقع هذا الزمان ، ويراعي أحوال الناس وحاجاتهم يقتضي أن لا تقف حدود الفهم عند بعض مسائل فقه الأحكام على سبيل التلقين أو التلقي دون غوص أو إدراك لفقهِ المقاصد أو الأولويات أو الواقع أو المتاح مما تغيب معه الغاية الأسمى لمقاصد التشريع .

وعلى ذلك فإن من أوجب الواجبات الشرعية في هذا الزمان على كل مسلم أن ينضبط لديه ميزان الشرع الصحيح ، فيرتب الأوامر الشرعية والتعاليم الإسلامية حسب وضعها في دين الله تعالى ، حتى لا يؤخر ما حقه التقديم أو يقدم ما حقه التأخير ، أو يضيع الفاضل بانشغاله بالمفضول .

وقد قيل لبشر الحافي : إن فلاناً الغني كثر صومه وصلاته ، فقال : إنه لمسكين ، لقد ترك حاله ودخل في حال غيره ، إن واجبه إطعام الطعام وبناء الخيام ، فهذا أفضل من تجويعه لنفسه ، ومن جمعه للدنيا ومنعه للفقراء .

وانطلاقاً من هذا الفهم المقاصدي لأوامر الدين الحنيف ، وترتيباً لفقهِ الأولويات فإننا نوكد على أن تقديم قضاء حوائج الناس والمجتمع أولى من تكرار الحج والعمرة ؛ لأن قضاء حوائج الناس كالتيسير على معسرٍ وقضاء حاجته ، أو الصدقة على فقير وكفايته ، أو فك أسر سجينٍ مدينٍ بدينٍ من فروض الكفايات ، ومعلوم أن الوفاء بفروض الكفايات مقدم على جميع النوافل بما فيها تكرار الحج والعمرة ؛ لأن فقه الواقع يحتم على كل إنسان يعمل لمصلحة دينه ووطنه أن يقدم العمل الصالح الذي يتعدد نفعه على المجتمع على العمل الصالح الذي لا يتعدد نفعه ، ولا شك أن

(٤)

نفع قضاء حوائج الناس متسع ومتعدد ، وقد يكون صدقة جارية في إصلاح طريق أو بناء جسر أو مشفى أو مدرسة ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : ( إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) .  
ولقد رغب الإسلام في قضاء حوائج الناس والمجتمع ، بل وجعلها من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله (عز وجل) ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أي الأعمال أفضل؟ ، قال: ( أن تُدْخَلَ عَلَى أَخِيكَ الْمُسْلِمِ سُورًا ، أَوْ تُقْضِيَ عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تُطْعَمَهُ خُبْرًا ) .

وعن عمر (رضي الله عنه) أن رجلاً جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): ( أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تُقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلَيْنَ أَمْشِي مَعَ أَخِي لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمِضِيَهُ أَمْضَاهُ؛ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُبْتِغَاهَا لَهُ تَبَّتْ لَهُ قَدَمَاهُ يَوْمَ تَرْوُلُ الْأَقْدَامُ) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) ، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِعَبْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ) وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلِ الصَّائِمِ النَّهَارِ) .

(٥)

لقد راعى الإسلام ترتيب الأولويات حتى في الأعمال الصالحة، فأمر عند التفاضل بتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة أو الشخصية ، فإن كانت حاجة المجتمع إلى بناء المستشفيات وتجهيزها لعلاج الفقراء ورعايتهم فلا بد من القيام بذلك ، وإن كانت حاجة المجتمع لبناء المدارس والمعاهد وصيانتها وتجهيزها والإنفاق على طلاب العلم ورعايتهم فلا بد من القيام بها ، وإن كانت الحاجة ماسة لتيسير زواج المعسرین وسدّ الدين عن المدينين ، وتفريج كرب الغارمین فلا بد من القيام بذلك ، وإن كانت الحاجة في توفير المياه النقية الصالحة لكل أفراد الأمة ، فلا بد من القيام بهذا الواجب سداً للحاجات الضرورية للمجتمع.

وهذا ما فعله سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) عندما اشترى بئر رومة استجابة لأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين قال : ( مَنْ يَبْتَاعُ بِئْرَ رُومَةَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ) ، قال سيدنا عثمان : فَاَبْتَعْتُهَا بِكَذَا وَكَذَا ، فَاتَّيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ( صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ) فَقُلْتُ : إِنِّي قَدْ ابْتَعْتُ بِئْرَ رُومَةَ ، قَالَ : ( اجْعَلْهَا سِقَايَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَأَجْرُهَا لَكَ ) ، فقد كانت حاجة المجتمع ماسة لشراء المياه ، وكلما كانت الحاجة أشد كان الثواب أعظم .

**أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم**

\* \* \*

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلاماً على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

**إخوة الإسلام:**

إن الإسهام في خدمة المجتمع بقضاء حوائج الناس وتقديم يد العون للفقراء والمحتاجين وخاصة وقت الأزمات والشدائد والمحن من أفضل الأعمال التي

(٦)

يتقرب بها الإنسان إلى الله (عز وجل) ، فهو خير وسيلة للقضاء على الفقر ، والجهل ، والمرض ، حتى لا يجوع فقير ، ولا يضيع يتيم ، ولا يحتاج مسكين ، ومن ثمَّ يتحقق التوازن المجتمعي ، والعدل بين الناس ، وضمان الأمن والأمان .

يروى أن رجلاً جاء يودع بشر بن الحارث ، وقال : قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال : ألفي درهم. قال بشر: فأني تبتغي بحجك؟ تزهداً أو اشتياًقاً إلى البيت وابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله ، قال نعم : قال بشر: فإن أصبت مرضاة الله تعالى ، وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم ، وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى : أتفعل ذلك؟ قال: نعم. قال : اذهب فأعطيها لعشرة : مديون يقضي دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعيّل يغني عياله ، ومربي يتيم يفرحه ، وإن قوي قلبك تعطيها واحداً فأفعل ، فإن إدخالك السرور على قلب المسلم ، وإغاثة اللفهان ، وكشف الضر ، وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام.

وفي الختام ينبغي أن نعلم أن قضاء حوائج الناس والمجتمع ، وتحقيق احتياجاتهم الضرورية والأساسية واجب شرعي ووطني، قد يكون واجبا عينيا، وقد يكون واجبا كفاًياً، وفق الظروف والمسؤوليات والمواقع والقدرة على الإسهام في حل المشكلات ، نسأل الله أن يرزقنا حسن الفهم والفقه ، وأن يهدينا إلى سواء السبيل .

**اللهم فقهنا في ديننا ، وأصلح ذات بيننا  
وأعنا على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك**